نظرات في التقاسم والتواضع والتوقير:
من خلال إشارات محي الدين بن العربي الحاتمي

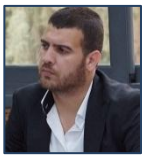

د. رشيد الاركو
باحث من المغرب
ORCID : 0009-0008-2964-325X

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى التفكر في ثلاثة مبادئ رئيسة هي: التقاسم والتواضع والتوقير. ونخال هذه المبادئ تَسِمُ الخطاب الصوفي من جهة، وتجعله في خضم ما يعتمل في عالمنا المعاصر من جهة أخرى. وقد تبين في المحصلة أن خطاب ابن العربي يقف على خلفية صلبة تشكلت من الوحي وتأسست عليه، لذا لا يمكن كنهه ونحن نعريه من الثقافة التي صاغته وشكلت معالم فهمه وممارساته؛ بمعنى لا بد من دراسة خطاب ابن العربي بوصفه خطابا من داخل الثقافة العربية الإسلامية وليس من خارجها، وأن كل ما قدمه له وجه ارتباط وتعلق بهذه الثقافة. إضافة إلى هذا فإن خطاب ابن العربي دقيق جدا، لهذا فأي تفكيك للمفاهيم أو المبادئ التي يشتغل بها إلا وسيترتب عليه فهم مغلوط لما يقدمه من تحريرات للقضايا الشائكة في الفكر العربي الإسلامي.

كلمات مفتاحية: الثقافة العربية الإسلامية، الخطاب الصوفي، محيي الدين بن العربي، التقاسم، التواضع، التوقير.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الاركو، رشيد. (2024، دجنبر). نظرات في التقاسم والتواضع والتوقير: من خلال إشارات محي الدين بن العربي الحاتمي. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 9 (الجزء 2)، السنة الأولى، ص 629-645.

Abstract:

This paper seeks to reflect on three main principles: sharing, humility, and reverence. We believe that these principles characterize the Sufi discourse on the one hand and make it relevant to the contemporary world on the other hand. In the end, it was found that Ibn Al-'Arabi's discourse stands on a solid background formed by revelation and founded on it, so it cannot be understood while stripping it of the culture that molded it and shaped its understanding and practices; in other words, it is necessary to study Ibn Al-'Arabi's discourse as a discourse from within Arab Islamic culture and not from outside it, and that everything he presented has a connection to this culture. In addition, Ibn Al-'Arabi's discourse is very precise, so any deconstruction of the concepts or principles with which he works will result in a misunderstanding of the liberations he offers on thorny issues in Arab Islamic thought..

Keywords : Arab Islamic culture, Sufi discourse, Muhyi Al-Din Ibn Al-'Arabi, sharing, humility, reverence.

1) مبدأ التقاسم

لا يخفى على أحد اليوم الهوة الساحقة بين الدول والشعوب، إن على المستوى الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو السياسي، أو التكنولوجي، فرغم أننا نتقاسم الوجود في هذا العالم نفسه، إلا أن خيراته لا تتوزع بالقدر نفسه من التقاسم، حيث يهيمن بدله التسابق والتنافس والتناحر والحروب بشتى توصيفاتها: نووية، وباردة، واحتكارية، وحضارية، ولغوية، وسيميائية.

ولعل ما أشار إليه بول لافارغ (ت 1911) (Paul Lafargue) في الفصل الثاني من كتابه "الملكية: الأصول والتطور" يبين بعضا مما نقصد إليه، إذ يذهب إلى أن الإنسان في بداهة تفكيره كان يعتقد أن خيرات الطبيعة وجب أن تكون مشتركة بين الجميع[1].

ثم يورد في هذا السياق مثالا عن معتقدات الهنود، معززا كلامه بأبحاث جون هيكويلدر (ت 1823) (John Heckewelder)، الذي قال إن الهنود يؤمنون بأن الروح العظيمة خلقت العالم وكل ما فيه لصالح الإنسانية جمعاء، ويؤمنون أيضا بأن هذه الروح لما عمَّرت الأرض وملأت الغابة بالطرائد، لم يكن ذلك لصالح القلة بل لصالح الجميع؛ لأن كل الأشياء معطاة بشكل مشترك لجميع البشر، فكل ما يتنفس على وجه الأرض، وكل ما ينمو في الحقول، وكل ما يعيش في الأنهار والبحار هو مشترك بين الناس، ولكل واحد منهم الحق في جزء منه[2].

ويرى المهدي المنجرة (ت 2014) من جهته أن التقاسم على مستوى ما هو مادي (غذاء، ولباس، ومال...) ينقص ويتضاءل، لكن عندما يتعلق الأمر بالتعلم والمعرفة، فكلما تقاسمنا ازددنا تنويرا[3]. ويمكن أن نضيف على هذا المنوال، أننا كلما تقاسمنا ما هو خاص وقدمناه للعالم بشكل مبدع وخلاق ازدادت الإنسانية علما ومعرفة وثقافة وأدبا وأخلاقا وجمالا.

ومبدأ التقاسم من المبادئ الأساس التي بشر بها الدين الإسلامي، حيث أفصح منذ البداية، أنه رسالة عالمية وكونية، وقد جاءت آيات القرآن الكريم معبرة في مواضع متعددة عن كونية رسالة هذا الدين وعالميته، من ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.[4]

---

[1] Paul Lafargue, Yves Guyot : La Propriété, Origine Et Evolution. Thèse Communiste. Réfutation, Paris, Delagrave, 1895, p332.

[2] Ibid.

[3] المهدي المنجرة، قيمة القيم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2007، ص182.

[4] سورة الأعراف، الآية: 158.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.[1]وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا﴾.[2]وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[3].

وقد أحصى محمد خليل جيجك في هذا السياق عدد الآيات الدَّالة على عالمية القرآن، فوصل إلى أنها تزيد على ثلاث مئة وخمسين آية"[4].

وبناء على ما سبق يمكن أن نصل إلى خلاصة أولية مفادها أن الدين الإسلامي والثقافة التي تأسست عليه منخرطان منذ انبثاقهما في كل ما هو إنساني وعالمي، بل أكثر من ذلك، يشاركان بالتصحيح والتوجيه والتنبيه رحمة بالعالمين.

لذا فالثقافة العربية الإسلامية[5] بهذا المعنى هي موجهة للعالم أجمع، وما حضور هذا البعد الإنساني والعالمي في إنتاجات علماء هذه الثقافة ومفكريها ومثقفيها ومتصوفيها إلا من باب التنزيل الفعلي والعملي لما ورد في القرآن الكريم وما فصلته السنة النبوية الشريفة.

وفي هذا السياق نضرب مثالين نحسبهما دالين ومعبرين عن تفعيل بعض معاني التقاسم وتنزيلها عمليا على أرض الواقع قصد معالجة ما يمكن معالجته، فأما المثال الأول فيرتبط بأحد الباحثين المعاصرين لنا، وأما المثال الثاني فهو مرتبط بأحد الصوفيين المعاصرين لابن العربي(ت 638هـ).

[1] سورة يوسف، الآية: 104، سورة القلم، الآية: 52، سورة التكوير، الآية: 27.

[2] سورة الفرقان، الآية: 1.

[3] سورة الأنبياء، الآية: 106.

[4] محمد خليل جيجك، دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2003، ص132.

[5] القصد من وراء اختيار المصطلح المركب "الثقافة العربية الإسلامية" دون سواه من المصطلحات المركبة المتصلة أو المنفصلة بواو أو عارضة، يتجلى في إيماننا أولا بأنَّ مصطلح العربية لا يدل في بنيته العميقة على عرق أو جنس بشري مخصوص، وإنما يدل على مشاركة أعراق وأجناس مختلفة في إبداع هذه الثقافة من منطلق اللسان العربي، وإيماننا ثانيا بأن المصطلح في صيغته الواصلة بين العربية والإسلامية يؤكد مبدأ رئيسا هو وصل ماضي الثقافة بحاضرها ومستقبلها.

المثال الأول

قال ابن عباس: (كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ)[1]. يقترح المهدي المنجرة[2] انطلاقا من هذا الحديث حلًّا لمشكلة الأمية باستعمال مفهومي التقاسم والمشاركة في جانبهما التربوي، وقد وضحّ مقترحه في النص الآتي: سيكون من البديهي، لو أنّنا أثناء مراحل التكوين، طلبنا من كل طالب، كشرط حصوله على البكالوريا، أن يقوم بمحو أمية خمسة أو ستة أشخاص، وعشرة قبل حصوله على الإجازة، وهكذا دواليك...أؤكد لكم، أنّه من الناحية البيداغوجية، فإن الطالب الذي سيحارب أمية خمسة أشخاص، سيساوي قيمة عشرة طلبة، لأنّه سينتقل من مرحلة التعلم إلى مرحلة التعليم، وهذا سيساعده كثيرا في مسيرته الجامعية. وانطلاقا من هذا الاستمداد النبوي استطاع المهدي المنجرة أن يصل إلى عدّ المتخلف في عصرنا هذا، هو العاجز عن تفعيل الطاقات الإنسانية وحسن استثمارها[3].

المثال الثاني

على غرار استمداد المهدي المنجرة لحديث فداء الأسرى من واقعة بدر، قصد معالجة بعض القضايا المجتمعية المستعصية والشائكة، نجد أبا العباس السبتي (ت 601هـ) منذ القرن السادس الهجري قد بلور فهمه للمسؤولية انطلاقا من حديث رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)[4]. ويتوسل في تنزيل هذا الفهم للمسؤولية وترجمته في الواقع بكلمات ثلاث يمكن اختصارها في العطاء والتقاسم والإيثار. وهو بذلك يرد الفعل المسؤول إلى أصله القائم

---

[1] روى الحديث الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث: 2216.

[2] مجموعة مؤلفين، الفكر التربوي في المدرسة المغاربية، تنسيق: الجيلالي سبيع وعز الدين حدو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، 2022، صص162-163.

[3] مجموعة مؤلفين، العلم والثقافة، أيّة علاقة، تنظيم مجموعة البحث في العلم والثقافة، بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1996، ص27.

[4] صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم الحديث: 1829. وقدم عباس الجراري شرحا وافيا لهذا الحديث في كتابه: المسؤولية في الإسلام، منشورات النادي الجراري (10)، ط1، سبتمبر 1996.

على العطاء لا الأخذ، ويعطي رسالةً سياسية مشفرةً، مفادها أنَّ مسؤوليةَ النّاس أمرٌ جسيم يقضي بالسَّهر على راحة النّاس قبل راحة المسؤول[1].

وقد تجلى هذا الفهم بشكل واضح في ممارسته للصدقة، حيث وصل إلى حد إعطاء جل ما يملك لمن يحتاج من مال أو غذاء أو لباس أو غطاء. يقول ابن الزيات التادلي (ت 627ه) في أخباره عن أبي العباس السبتي: "حدثني غيرُ واحدٍ أنّ أبَا العباس بات ليلةَ مطرٍ فغلبه البرد فأمر أنْ يغطَّى باللحاف، فلم يندفعْ عنه البرد فزيدت عليه اللحاف والبرد لم يندفع عنه، فقام من فراشه يمشي بالمحلة التي هو فيها ويقرع أبواب الديار ولا يستجيب له أحدٌ إلى أنْ قرعَ باب دار فاستجاب له أهلها، فعلم أنّهم لم يناموا من مكابدة البرد، فقال: ما لكم لم تناموا؟ فقالوا له قد ابتلت أثوابنا بالمطر فنحن نجففها على النَّار، فقال ها هنا غلبني البرد. فقال أبو العباس لأهله احملوا لهم هذه اللحاف فسيقت لهم وتغطوا بها، ودخل أبو العباس في فراشه وجعل على نفسه الغطاء التي جرت عادته أن يتغطّى بها دون تلك اللحاف فزال عنه البرد فنام"[2].

ولعلَّ العبرةَ من هذا المثال، هي أنَّ الدفْءَ والشبع والغنى يحصل بالعطاء والتقاسم والاكتفاء بالضروري من الحاجات، وليس بالأخذ والكثرة، لهذا كان أبو العباس السبتي يطبق على نفسه مبدأه في الوجود، ويسارع إلى الأخذ به في تفاصيل حياته اليومية، وحضِّ النَّاس على العمل بعمله، إلى حد أن انتهى إلى إعطاء تسعة أعشار والتمسك بالعُشُرِ، وهي النهاية[3].

[1] من الأمثلة التراثية على جسامة تقلد المناصب خاصة القضاء، رفض العلماء تولي القضاء رغم إلحاح الخلفاء والولاة، ورغم الضرب والتنكيل، ووصل هروبهم من هذا المنصب إلى حدِّ ادعاء بعض العلماء الحمق للحيلولة عن تولي القضاء، وهذا راجع كلّه إلى الفهم العميق للمسؤولية وأثرها في النّاس والمجتمع، وخاصة الرياسة والولاية والقضاء. وقد قيل قديما: لا خير فيمن يرى نفسه أهلا لشيء لا يراه الناس أهلا لذلك، وقد أورد هادي العلوي في مدرات صوفية قصة عن النبي يوسف حيث سئل: ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. هادي العلوي، مدارات صوفية تراث الثورة المشاعية في الشرق، دفاتر النهج، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، ط1، 1997، ص235.

[2] ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة بالرباط، ط1، 1984، ص466.

[3] نفسه، ص473.

وهكذا يأتي أبو العباس بالحجج على أنَّ الإنفاق المحسوس هو الدليل الصادق على التوحيد القلبي المعتبر، وكذلك اعتقد أنَّ التطبيق العملي لتعاليم القرآن في الإنفاق هو السبيل إلى الخير كلّه[1].

وما ينبغي التنبيه له أخيرًا، هو أنَّ ممارسةَ أبي العباس السبتي كشفت الكثير من القضايا الأساس التي يجب تعميق البحث فيها، من أبرزها الفهم المتداول للزكاة والصدقة _حيث يرى_ أنَّ الزكاة فرضت ليتدرب النَّاس على البذل والعطاء، وليس للاكتفاء بها، ومعنى التَّدرب في هذا السياق، هو تربية النَّفس على العطاء في الأوقات المخصوصة، للوصول إلى العطاء بشكلٍ يومي دونما انتظار توافر شروط الزَّكاة أو الصدقة، وبهذا الفهم اعتبر الصدقة جارية على الكلِّ وليس فقط على الأغنياء، وبالتالي فمن يملك كثيرا يتصدق، ومن يملك قليلا يتصدق، ومن لا يملك شيئا يبحث عن شيء يتصدق به، سواء كان درهمًا أو غطاء أو تمرة أو غيرها.

ومن هنا ندرك خطورة هذا الفهم وعمقه، حيث سيصبح فعل الصدقة - باعتباره رافدا من روافد التقاسم الإنساني - فعلا جماعيًّا يقوم به الغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والرجل والمرأة، وبهذا الفهم يُعطي أبو العباس السَّبْتِي للفقير دورًا محوريًّا، فهو لم يعد كما السابق، متلقٍ أو مستحق للصدقة أو الزكاة فقط، بل أصبح دوره دورًا مزدوجا يعطي ويأخذ ليعطي. وبالتالي فقد نفى أبو العباس السبتي عن الفقير تلك السلبية التي ألصقت به منذ قرون، وجعله مساهما في نمو اقتصاد المجتمع، وليس عالة على أحد، ونتيجة لكلِّ هذا أصبحت الصدقة عنصرا فاعلا لتدوير الأموال وتبادلها في المجتمع، ممّا يسهم لا محالة في طفرة نوعية على مستوى إنعاش الاقتصاد الوطني العام.

والحقُّ أنَّنا لا نجدُ غضاضةً، إذا اعتبرنا رؤية أبي العباس السبتي رؤية ثورية أسُّهَا وأساسُهَا العطاء، وحتى الأخذ في آخرِ المطاف هو عطاء، أي من أجل العطاء. وقد لخصَّ أبو الوليد بنُ رشد الحفيد (ت595ه) بشكل عميق فهم أبي العباس السبتي للتقاسم والمشاركة والعطاء حين قال: "هذا رجل مذهبه أنَّ الوجودَ ينفعلُ بالجودِ"[2].

وهذا الوصف الدقيق لمذهب أبي العباس السبتي لا يقف في بنيته العميقة عند حدود أبي العباس السبتي الإنسان بل يتجاوزه ليشمل الخطاب الصوفي خاصة والثقافة العربية الإسلامية

[1] أحمد التوفيق، أبو العباس السبتي ومذهبه في التضامن والتوحيد، درس حسني ألقاه يوم الخميس فاتح رمضان سنة 1436ه.

[2] ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، ص453.

عامة، لكون هذه الثقافة والخطابات المعرفية المنبثقة من رحمها تتميز بخصوصيات جمة منها الجود والعطاء والتقاسم والمشاركة والمشاطرة والإيثار والزكاة والصدقة والتطوع، ونحسب أن هذه الخصوصيات السلوكية كما عبر أحمد جوهري ما هي "إلا تفعيل لمقولة إدراكية ثقافية إسلامية هي مقولة البذل"[1].

وعليه فالأصل في التقاسم - كما نتصوره - أنه سار في الكون، وأنه مبدأ إنساني، وبالتالي فغيابه أو تغييبه هو نوع من الحط والتنقيص من إنسانية الإنسان.

وخير ما نختم به هذا المبدأ، هو الدعوة إلى تكريس التقاسم وممارسته في واقع حياتنا وخاصة الواقع التربوي، وقد أحسن إدغار موران (Edgar Morin) في توظيف هذا الفهم للتقاسم باعتباره غاية في التربية في كتابه "المعارف السبعة الضرورية لتربية المستقبل" خاصة فصله الرابع الذي جعل مداره "تعليم الهوية الأرضية"، حيث دعا فيه إلى المواطنة الأرضية، وهو بذلك يأخذ بيد الإنسان ليفهم حقيقة وجوده وحتمية اشتراكه مع بني جنسه في مصير كوكبي واحد.

لذا يجب على الإنسان التفكير بشكل يشمل كل شيء، أي يفكر ويتصرف بحسب ما يقتضيه الكون[2]، متجاوزا التفكير المنفصل والجزئي والذاتي، حيث أصبح الإنسان يعيش في عالم ضيق ومترابط الأجزاء، وفي نظر إدغار موران إن وحدة الكوكب الذي يعيش فيه الإنسان تحتاج إلى وعي وإحساس بالانتماء المتبادل الذي من شأنه أن يجعلنا نرتبط بالأرض بما تتضمنه من هوية مشتركة بين الناس، وبما تحيل عليه أيضا من مصير مشترك بين الناس[3].

ويضيف في هذا السياق: "علينا أن نتعلم كيف نكون هنا فوق الكوكب، ونعني بقولنا أن نكون هنا، أن نتعلم كيف نعيش، كيف نتقاسم الأشياء بيننا، وكيف نتواصل، وكيف نتوحد فيما بيننا...علينا أن نطمح ليس نحو السيطرة على الأرض، بل نحو توفير سبل العيش فيها، ونحو تحسينها، ونحو فهمهما"[4].

[1] مجموعة مؤلفين، التواصل في الرؤية المعرفية الإسلامية، تنسيق: أحمد الجوهري، أيام دراسية (02)، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، ط1، 2011، ص29.

[2] إدغار موران، المعارف السبعة الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة: عزيز لزرق، ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، ومنشورات اليونيسكو، الدار البيضاء، ط1، 2002، ص69.

[3] نفسه، ص69.

[4] نفسه، صص69-70.

ولن يتأتى هذا في نظره إلا إذا رسخنا بداخلنا الوعي بالمداخل الأربعة الآتية: الوعي الأنثروبولوجي الذي يعترف بوحدتنا في إطار تعدديتنا، والوعي الإيكولوجي أي الوعي بأننا نعيش مع كل الكائنات الفانية داخل المحيط الحيوي نفسه، والوعي المدني الأرضي ويقصد به الوعي بالمسؤولية والتضامن مع جميع أطفال الأرض، والوعي الحواري الذي يكتسب من خلال ممارسة مركبة للتفكير[1].

ليصل في الاخير إلى القول: إننا ملتزمون على مستوى الإنسانية الكوكبية، كي نتمم هذا العمل الجوهري للحياة والمتمثل في مقاومة الموت. إن التحضر والتضامن في الأرض، وتحويل النوع البشري إلى إنسانية حقة، لهو الهدف الأساسي والإجمالي لكل تربية متطلعة لا فقط نحو التقدم، ولكن نحو الحفاظ على بقاء الإنسانية. في هذا العصر الكوكبي، يجب على الوعي بإنسانيتنا أن يقودنا إلى التضامن والعطف المتبادل لكل واحد اتجاه الآخر، وللكل اتجاه الكل. على التربية أن تتضمن أخلاقا متعلقة بالفهم الكوكبي"[2].

2) مبدأ التواضع

خير ما نفتتح به هذا المبدأ هو الإشارة إلى أن ابن العربي يتبنى مبدأ التواضع في رسائله ومفاوضاته ومناظرته وأحكامه، وتفاصيل حياته ومجرياتها تأسيا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ. وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ)[3].

وهذا التبني لا يخلو من تأكيد مسألة مهمة، وهي أن التواضع مشدود إلى الفهم الذي أعطاه ابن العربي للاتساع الإلهي من جهة، ولمسألة حسن الظن بالآخرين من جهة ثانية، وهذا ما أفضى به من جهة ثالثة، إلى نبذ التعصب والكبر والتحقير، وكل ما من شأنه الانتقاص من الخلائق، والدعوة في مقابل كل ذلك إلى قيم المحبة والتواضع والتقاسم والتوقير.

ولعل أبيات "ترجمان الأشواق" الشهيرة لابن العربي تتجه صوب هذا القصد، إذ يقول فيها:

[1] إدغار موران، المعارف السبعة الضرورية لتربية المستقبل، مرجع سابق، ص70.

[2] نفسه، ص72.

[3] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم الحديث: 2588.

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلَّ صُوْرَةٍ فَمَرْعًى لِغِزْلَانٍ وَدَيْرٌ لِرُهْبَانِ
وَبَيْتٌ لأوثانٍ وَكَعْبَةُ طَائِفٍ وَأَلْوَاحُ توراةٍ وَمُصْحَفُ قُرآنِ
أَدِيْنُ بِدِينِ الْحُبِّ أَنَّى تَوَجَّهَتْ رَكَائِبُهُ فَالدِّينُ دِينِي وَإِيمَانِي[1]

وانطلاقا من تفعيل ابن العربي لفهمه لمفهوم الاتساع الإلهي، لا يتبقى شك أن قلبه سيكون قابلا وفاهما وموقرا ومقدرا للمختلفين عنه، سواء من ينتمي للديانات الكتابية أو غير الكتابية، وهو بذلك يترجم أيضا فهمه لمسألة حسن الظن، إذ يتلمس لأخيه الإنسان أعذارا قبل أن يطلق حكما تصنيفيا أو إقصائيا أو قدحيا، ولعل عبارة "أدين بدين الحب" تجمل كثيرا من مخائل هذا الفهم، وقد ألمحنا لبعضها في مناسبات سابقة، خاصة تلكم العلائق الوثيقة التي تصل خلق الإنسان بالحب والجمال والرحمة.

وما يزيد في بيان التواضع بحسب ابن العربي إشاراته إلى أنه ليس في العالم مرض يحتاج لعلاج بل فيه تعصب يحتاج للتواضع[2]. ومن ثمة فعلاج التعصب بحسبه هو التواضع، ومن هذا الباب يبشر برؤيته الخاصة ويدعو إليها، إيمانا منه بكونها صائبة. ولكن رغم ذلك، فهو كثيرا ما يحذوا حذوا سابقيه المنتمين للثقافة العربية الإسلامية نفسها، بوضع في آخر كتاباته أو نصوصه عبارة "الله أعلم" هذه العبارة المقتضبة جدا تلخص كثيرا الخلفية التي ينطلق منها ابن العربي، وعبارة "الله أعلم" في نظرنا آية في التواضع العلمي والعملي.

وبالتالي فالتواضع ضروري وشامل لكل المستويات، سواء الأخلاقية أو العلمية أو التعبدية. والتواضع حاضر في كل العلاقات المرتبطة بالإنسان، سواء في علاقة الإنسان بربه، أو في علاقته بنفسه وأخيه الإنسان، أو في علاقته بباقي الخلائق الحية أو ما تبدو لنا جامدة.

وهذا السريان الذي للتواضع في الوجود ليس من السهل التمكن من فهم كل إمكاناته وأحكامه ودركها بحسب ابن العربي. وقد أشار إلى بعض معاني التواضع شعرا في "حضرة الخفض" قائلا:

[1] ابن العربي، ديوان ترجمان الأشواق، اعتنى به: عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2005، ص62.

[2] نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن العربي، المركز الثقافي، الدار لبيضاء، ط3، 2006، ص183.

إِنَّ التَّوَاضُعَ حُكْمٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... إِلَّا الْعُلَى الَّذِي للهِ يَخْفِضُهُ
تَنَزَّلَ الْحَقُّ إكرامًا إِلَى دَرَجٍ ... بِهِ يُجْزِئُهُ بِهِ يُبْغِضُهُ[1]

وزاد مجملا سر التواضع بقوله: "ما تواضع عن رفعة إلا صاحب منعة...قال: ﴿وَلِلهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] فلا يتواضع إلا مؤمن فإن له الرفعة الإلهية بالإيمان، تواضع المؤمن نزول الحق إلى السماء الدنيا. وقال العارف: لا يعرف التواضع لأنه عبد. وقال: انظر بعقلك في سجود الملائكة لآدم فما صرفت وجوهها إلى التحت إلا وهو فيه لتشاهده في رتبته مشاهدة عين. وقال: ما كانت خلافة الإنسان إلا في الأرض لأنها موطنه وأصله ومنها خلق وهي الذلول. وقال: دعا الله العالم كله إلى معرفته وهم قيام فإن الله أقامهم بين يديه حين خلقهم فأسجدهم فعرفوه في سجودهم فلم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها أبدا. وما عاين من هذا السجود (سهل) إلا سجود القلب. قال: ما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم طعم التواضع إلا صبيحة ليلة إسرائه لأنه نزل من أدنى من قاب قوسين إلى من أكذبه فاحتمله وعفا عنه"[3].

إن هذه الإشارات الدقيقة التي أجملها ابن العربي في تلخيصه للباب السادس والتسعين وثلاثمائة من الفتوحات المكية، هي إشارات توضح بعض علاقات التواضع، من قبيل ارتباط الإنسان بحضرة الخفض والتحت حيث موطنه الأرض وهي الذلول، وتبين أن العارف لا يستطيع كنه حقيقة التواضع لأنه عبد، وتعطي في الأخير أنموذجا دالا على التواضع الذي أبانه الرسول صلى الله عليه وسلم، فرغم أنه صلى الله عليه وسلم كان أدنى من قاب قوسين إلا أنه صبر واحتمل وعفا عمن اتهموه بالكذب تواضعا منه صلى الله عليه وسلم، وسيرة الرسول كلها في هذا الباب أنموذج عملي عن التواضع في أعلى دراجاته. وتطبيقات التواضع كثيرة نجتبي أنموذجين للتمثيل لا الحصر:

الأنموذج الأول

إن العلاقة التي يعقدها ابن العربي بين الشيخ والمريد علاقة مزدوجة، فالأصل فيها هو استفادة المريد من شيخه واتباع خطاه، لكن ابن العربي بعد أن أفاض في بيان المكانة التي يجب أن يحتلها الشيوخ والمربون، والآداب التي يجب أن يتخلق بها المريد في حضرة شيخه أو غيابه، أبان

[1] ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، قدم له محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد مكتب التحقيق بدار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، جص، 226.
[2] سورة المنافقون، الآية: 8.
[3] ابن العربي، الفتوحات المكية، ج4، ص405.

عن جانب آخر يكمل العلاقة ويعطيها أفقا أرحب، ويتمثل ذلك في استفادة الشيخ من مريده، يقول ابن العربي في معرض مفاوضة تلميذه إسماعيل بن سودكين (ت 646ه) وتنبيهه له في مسألة التجلي في الفعل هل يصح أو لا يصح؟: "قد يستفيد الأستاذ من التلميذ أشياء من مواهب الحق تعالى، لم يقض الله للأستاذ أن ينالها إلا من هذا التلميذ، كما نعلم قطعا أنه قد يفتح للإنسان الكبير في أمر يسأله عنه بعض العامة مما لا قدر له في العلم ولا قدم، ويكون صادق التوجه في هذا العلم المسؤول عنه، فيرزق العالم في ذلك الوقت _لصدق السائل_ علم تلك المسألة، ولم تكن عنده قبل ذلك عناية من الله بالسائل، وتضمنت عناية الله بالسائل أن حصل للمسؤول علما لم يكن عنده، ومن راقب قلبه يجد ما ذكرناه. فالحمد لله الذي استفدنا من أولادنا مثل ما استفاده شيوخنا منا أمورا كانت أشكلت عليهم"[1].

ويضيف في ذخائر الأعلاق: "إن الصغير يؤثر في الكبير إذا كان صادق التوجه، وهذا يظهر كثيرا في المريدين الصادقين مع الشيوخ، وإن كان الشيخ أعلى، ولكن صدق التوجه إليهم، أثر لهم رحمة بهم ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[2] عاجلا وهو هذا، وآجلا ما يكون في الأخرى لهم"[3].

يتبين من خلال هذا الأنموذج أن ابن العربي يؤكد أمرا في غاية الأهمية، يتجلى في تعميم الاستفادة من الخلائق أجمعين دون استثناء، وذلك انطلاقا من إيمانه الراسخ بأن ضالة المؤمن هي الحكمة أنى وجدها فهو أحق الناس بها، وأيضا إيمانه بأن المعلم على الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، يؤتي الحكمة من يشاء ويعلم من يشاء. وهذه الاستفادة من المريد أو الصغير تثبت التواضع في جانبين، تواضع المريد أمام شيخه بحسن مفاوضته وتنبيهه، وتواضع الشيخ أمام العلم ومواهب الله تعالى بقبولها والإقرار بها وحمد الله عليها.

الأنموذج الثاني

لا بأس بتأكيد ما استخلصناه في الأنموذج الأول برأي أحد الباحثين المعاصرين إزاء وظيفة المثقف، والقصد إلى قول المهدي المنجرة الذي يذهب إلى أن: "الأساس عند كل مثقف هو التواضع والمثال. وعندما أقول التواضع، فإنني لا أعني تواضع السلوك فحسب، وإنما التواضع الفكري أيضا. فعلى المثقف أن يكون متواضعا أمام المعرفة والعلم وأن يتقرّب إليهما يوميا بالميلمترات،

[1] ابن العربي، الفتوحات المكية، ج2، صص668-669.

[2] سورة الأحزاب، الآية: 24.

[3] ابن العربي، ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق: محمد عبد الرحمن الكردي، دار بيبليون، باريس، ط1، 2005، ص97.

ويدرك في كل لحظة أن ما أنجزه ليس إلا الجزء اليسير من المسؤولية الملقاة عليه. أما أن يكون مثالا فمعناه أن يكون رمزا للآخرين قبل أن يؤدي وظيفة التبليغ؛ فإذا كانت الوظيفة الأساسية لأي مثقف هي التبليغ، فإنه لن تكون ثمة مصداقية لهذا التبليغ إذا لم تتوفر فيه شروط المثال واحترام الآخرين له، لأن الناس قد يقبلون الغش والتدليس في كل شيء إلا في الفكر"[1].

ونختم مبدأ التواضع بنص ابن العربي الآتي الذي يقول فيه: "من ذلك من لم يتكبر على خلقه فقد أدى واجب حقه:

لَيْسَ التَّكَبُرُ وَالْإِهْمَالُ مِنْ شِيَمِي ... بَلِ التَّوَاضُعُ وَالْإِمْهَالُ مِنْ شِيَمِي

إِنِّي عَبَدْتُ الَّذِي أَجْنِي وَيَغْفِرُ لِي ... وَهُوَ الْمُهَيْمِنُ رَبُّ الصَّفْحِ وَالْكَرَمِ

قال: لا يتكبر على الأمثال إلا من جهل إنهم أمثال، فكما لا يتكبر الشيء على نفسه كذلك لا يتكبر على مثله، ومن لم يتكبر على خلق الله فقد أعطاهم حقهم الذي وجب لهم عليه، كما أعطاه الله خلقه الذي لم يكن إلا به"[2].

3) التوقير

في سياق تبيان الأبعاد الإنسانية في مذهب ابن العربي، محقوق بنا أن نشير ولو بشكل موجز إلى مبدأ ثالث اشتغل به في تجربته الكتابية، ومارسه في تفاصيل حياته اليومية، وهو مبدأ التوقير. هذا المبدأ يحيل في عمقه على الارتباط بوجه من وجوه الحقيقة الممكنة تبعا لمفهوم الاتساع الإلهي وما يختزنه من رحابة في التقدير وسعة في حسن الظن بالخلق أجمعين.

ولا شك أن الثقافة العربية الإسلامية زاخرة بالحث على تفعيل التوقير في الحياة بما هو تعظيم وتبجيل وتفخيم وتقدير، خاصة توقير الله، وتوقير الأنبياء والرسل، وتوقير النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته وصحابته، وتوقير الوالدين، وتوقير الكبير والرحمة بالصغير، وتوقير العلم والعلماء، وتوقير الناس أجمعين بعدم غمط حقوقهم وظلمهم.

وقد فصلت السنة النبوية الشريفة الآداب الخاصة بكل توقير على حدة. ولعل المتلقي لا يغيب عليه بكون ابن العربي لا يخرج عن إطار الثقافة العربية الإسلامية، بل ينهل من عيونها وينابيعها، وبالتالي فمبدأ التوقير يشكل رفقة مبادئ أخرى (التواضع، والتقاسم، وحسن الظن،

[1] المهدي المنجرة، عولمة العولمة: من أجل التنوع الحضاري، منشورات الزمن، الرباط، ط 1، 2000.

[2] ابن العربي، الفتوحات المكية، ج4، ص424.

والاتساع الإلهي...) تلكم المفاتيح الأساس التي تعيننا على القراءة الأقرب إلى الصواب لرؤية الرجل التي حاول تقديمها طوال سنين حياته.

قال ابن العربي في وصية جامعة: لن تبلغ من الدين شيئا حتى توقر جميع الخلائق، ولا تحتقر مخلوقا ما دام الله قد صنعه[1].

ولا نريد في تعقيباتنا على النصوص المقتبسة حصرها في معنى وحيد هو الصحيح الصائب، بل نبتغي من تلك التعقيبات الإشارة إلى وجه من وجوه المعاني المقصودة والمرتبطة بسياق اقتباسنا، وذلك انسجاما مع كون ابن العربي لا تفهم نصوصه في انفصالها، بقدر ما تفهم في اتصالها رغم تبددها في مواضع مختلفة من الكتاب الواحد.

لذا يمكننا القول إن ابن العربي في الشق الأول من وصيته، يجعل شرط توقير الخلائق شرطا أساسا لكل من أراد أن يبلغ من الدين درجة، ويوضح في شقها الثاني، أن التعظيم والتوقير الذي عم الخلائق جاءه من عظمة الخالق، بمعنى أن كل ما جاءنا من الخالق سبحانه فهو عظيم، لهذا فاحتقار الخلائق بحسب فهمه هو احتقار للخالق، لذا يدعو من هذا المنطلق إلى التوقير بدل التحقير.

ويؤكد ابن العربي هذا المعنى بقوله: "أوصيتك لا تحقر أحدا من خلق الله فإن الله ما احتقره حين خلقه:

لَا تَـحْـقِـرَنَّ عِـبَـادَ اللهِ إِنَّ لَـهُـمْ قَـدَرًا وَلَوْ جُمِعَتْ لَكَ الْـــمَقَامَاتُ

فلا يكون الله يظهر العناية بإيجاد من أوجده من عدم وتحقره أنت فإن في ذلك تسفيه من أوجده، واحتقاره نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين، فإن هذا من أكبر الكبائر"[2]. وقد استند للتدليل على هذا المعنى إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحْقِرَنَّ إِحْدَاكُنَّ مَا تَهْدِيهِ لِجَارَتِهَا وَلُوْ فَرْسَنُ شَاةٍ فَإِنَّ الْاِحْتقَارَ جَهْلٌ مَحْضٌ)[3].

إذن فابن العربي يدعو إلى إعلاء مبدأ التوقير وتفعيله في شتى مناحي الحياة، ومع جميع الخلق، إنسانا كان أو حيوانا أو جمادا، إيمانا منه بأن كل ما في الكون يسبح الله ويحمده.

---

[1] مصطفى محمود، الإسلام في خندق، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط1، 1994، ص8. وينظر، أحمد الشقيري، خواطر شاب، العبيكان للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 2008، ص34.

[2] ابن العربي، الفتوحات المكية، ج4، ص462.

[3] رواه البخاري في صحيحه بلفظ: (لا تحقرن جارة لجارتها)، كتاب الهبة وفضلها والتحريض علها، رقم الحديث: 2566.

الخاتمة

إن هذه المبادئ الثلاثة التي عملنا على تجلية بعض ممكناتهما، لازمت ابن العربي في تجربتيه الحياتية والكتابية؛ أي كانت حاضرة في عمق تنظيراته وسارية في جل ممارساته، حيث صار الأمر بها والحضُّ عليها رطبًا على لسانه وجارية في أقواله، وصارت أيضا أساس حركاته وسكناته.

ولعل العنفوان الذي ننشده من وراء عرض هذه المبادئ في تداخلها مع المفاهيم الأس التي تشكل رؤية ابن العربي إلى الله والإنسان والعالم، من قبيل الاتساع الإلهي، وسريان الرحمة في الوجود، والحب، والخيال، والجمال، وطور العقل وطور ما وراء العقل، والكمال الإنساني يتمثل في الخلاصات الأربع الآتية:

تبين الخلاصة الأولى أن الخطاب الأكبري فهما وتنزيلا خطاب يقف على أرضية صلبة تشكلت من الوحي وتأسست عليه، ويؤمن إيمانا راسخا بممكناتها، لذا عَمِلَ ابن العربي جاهدا على بث ما يراه أولى وصائبا، ناقدا في خضم ذلك كله تلكم الرؤى التي ضيقت واسعا فوقفت عند ما يعطيه النظر العقلي ولم تتجاوزه إلى الأفق الأرحب الذي يكمن في الوحي الرباني ويظهر.

وأما الخلاصة الثانية فتؤكد أنه لا يمكن تحصيل درر الخطاب الأكبري ونحن نعريه من الثقافة التي صاغته وشكلت معالم فهمه وممارساته، بمعنى لا بد من دراسة الخطاب الأكبري بوصفه خطابا من داخل الثقافة العربية الإسلامية وليس من خارجها، وأن كل ما قدمه سواء في حدوده الدنيا أو القصوى إلا وله وجه ارتباط وتعلق بهذه الثقافة بغض النظر عن مدى صواب إنتاجاته أو خطئها. وهذا كله لا يعني بالضرورة عدم تأثره بما هو خارج عن ثقافته الأم بل العكس هو ما نراه، حيث نذهب إلى أن تأثر ابن العربي بالمتاح الفكري في عصره حاصل وواقع _لا محالة_ لكن تأثره ذاك كان وهو واقف على أرضية صلبة.

وأما الخلاصة الثالثة فتشدد على أن الخطاب الأكبري خطاب دقيق جدا، فأي فصل أو تجزيء أو عزل أو تفكيك للمفاهيم أو المبادئ التي يشتغل بها إلا وسيترتب عليه فهم مغلوط ومقلوب لما يقدمه الرجل من تحريرات للقضايا الشائكة، ومن ملء لتلكم البياضات في الفكر العربي الإسلامي خاصة والفكر الإنساني عامة.

وأما الخلاصة الأخيرة فتذهب إلى أن الخطاب الصوفي عامة والخطاب الأكبري على وجه خاص، يسهم في إغناء الثقافة والحضارة العالميتين، وذلك لقدرته على بلورة فهم جديد للحياة وتفاصيلها الدقيقة، وللموت بكونه دافعا لدوام التفكير والتأمل والعمل، وكذا الوعي بالإنسان

والعالم مظهرا ومخبرا. إن هذا الخطاب بمصرحه ومضمره كفيل بترسيخ نوع جديد من الفعل يقوم على أساس جامع لفهم الغاية من الوجود، وطبيعة هذا الوجود، والممكنات اللانهائية له، والطريقة المثلى لعيش الإنسان في هذا الوجود رفقة باقي الخلائق، وكفيل أيضا بدفع الإنسان إلى معرفة نفسه وعالمه المعرفة الحقة، فهو يعطي لله حقه، وللعالم حقه، ويبين للإنسان موقعه وللعقل حدوده.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، رواية ورش.
- **المراجع باللغة العربية:**
- ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة بالرباط، ط1، 1984.
- ابن العربي، الديوان الكبير، تحقيق: عبد الإله بن عرفة، دار الآداب، بيروت، ط1، 2018.
- ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، قدم له محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد مكتب التحقيق بدار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.
- ابن العربي، ديوان ترجمان الأشواق، اعتنى به: عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2005
- ابن العربي، ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق: محمد عبد الرحمن الكردي، دار بيبليون، باريس، ط1، 2005.
- أحمد التوفيق، أبو العباس السبتي ومذهبه في التضامن والتوحيد، درس حسني ألقاه يوم الخميس فاتح رمضان سنة 1436هـ.
- أحمد الشقيري، خواطر شاب، العبيكان للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 2008.
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999.
- إدغار موران، المعارف السبعة الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة: عزيز لزرق، ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، ومنشورات اليونيسكو، الدار البيضاء، ط1، 2002.
- عباس الجراري، المسؤولية في الإسلام، منشورات النادي الجراري (10)، ط1، سبتمبر 1996.
- مجموعة مؤلفين، التواصل في الرؤية المعرفية الإسلامية، تنسيق: أحمد الجوهري، أيام دراسية (02)، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، ط1، 2011.

- مجموعة مؤلفين، العلم والثقافة، أيّة علاقة، تنظيم مجموعة البحث في العلم والثقافة، بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1996.
- مجموعة مؤلفين، الفكر التربوي في المدرسة المغاربية، تنسيق: الجيلالي سبيع وعز الدين حدو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، 2022، صص162-163.
- محمد خليل جيجك، دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2006.
- مصطفى محمود، الإسلام في خندق، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط1، 1994.
- المهدي المنجرة، عولمة العولمة: من أجل التنوع الحضاري، منشورات الزمن، الرباط، ط1، 2000.
- المهدي المنجرة، قيمة القيم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2007.
- نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن العربي، المركز الثقافي، الدار لبيضاء، ط3، 2006.
- هادي العلوي، مدارات صوفية تراث الثورة المشاعية في الشرق، دفاتر النهج، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، ط1، 1997.
- Paul Lafargue, Yves Guyot: La Propriété, Origine Et Evolution. Thèse Communiste.-Réfutation, Paris, Delagrave, 1895.